

بول وفرجينى برناردان دى سان بيير

(١٧٣٧ - ١٨١٤)

بمقام
الأستاذ ايليا نعمان هكيم

أحضان الطبيعة ، والاستجابة لنداء القلب ، واستثارة
العاطفة ، واستدراار الدموع .

وكى نفهم هذه النزعة التى سيطرت على الجزء
الأخير من منتصف القرن الثامن عشر بحسن بنا قبل
الحديث عن برناردان دى سان بيير وعن قصته « بول
وفرجينى » أن نلقى بعض الضوء على الاتجاهات الفكرية
فى القرن الثامن عشر عامة لا سيما فى الفترة التى سبقت
ظهور قصة « بول وفرجينى » ومهدت لها .

يصف مؤرخو الأدب الفرنسى عصر فولتير
ومونتسكيو وديدرو وروسو بعصر الفلسفة والنور لأن
أهم ما شغل بال الأدباء فيه هو التفكير العلمى والفلسفى ،
وكان مفهوم الفلسفة يختلف فى ذلك الوقت عنه فى
العصور اليونانية القديمة . كان أكثر ما يعنى به فيلسوف
القرن الثامن عشر بحث المشاكل السياسية والاجتماعية
والخلاقية والعلمية والدينية ليس فى حقيقتها المطلقة ولكن
بالنسبة لعلاقتها بسعادة الإنسان فرداً أو جماعة . وكانت
أبرز عناصر التفكير الفلسفى الاعتماد على التجارب
الحسية ، وإنكار وجود الروح والاعتقاد فى مادية
العملية الذهنية ، والإيمان ببحرانية كلية مع الاعتراف
بحرية فردية فيما يتعلق بالسلوك الخلقى ، والتتنكر للأديان

يقول برناردان دى سان بيير فى مقدمة الطبعتين
الأولى والثانية من قصته : « أردت من هذا الكتاب أن
أجمع بين جمال الطبيعة فى المناطق الحارة وجمال الحياة
الخلاقية والروحية لمجتمع صغير يعيش فى كنفها . كما
أردت إيضاح حقيقة جوهرية وهى أن سعادتنا على هذه
الأرض تتمثل فى عنصرين ، الطبيعة والفضيلة » .

ويقول أيضاً فى نفس المقدمة : « عندما انتهيت
منذ سنوات من كتابة عناصر هذه القصة العاطفية
البريئة ، قرأها على إحدى سيدات المجتمع ، ثم أعدت
قراءتها على عدداً من أفاضل الرجال ممن يعيشون فى عزلة
عن المجتمع ، حتى أعرف مبلغ تأثير القصة فى قراء
تختلف طباعهم وميولهم : وكم كان سرورى إذ رأيت
الدموع تنحدر من عيونهم جميعاً » .

ويلخص سان بيير فى هاتين الكلمتين ما قصد إليه
فى روايته من حث على حياة الطبيعة والفضيلة ، وإثارة
لمشاعر القراء ودموعهم ، وبذلك يستجيب سان بيير
لحاجة كانت تختلج فى قلوب الناس فى هذه الفترة من
القرن الثامن عشر ، وهى الهروب من المجتمع الحضرى
وما فيه من تكلف وقيود والتخلص من الفلسفة وجمودها
والتنحدر من العقل واستدلالاته الجافة ، والارتقاء بين

والكنيسة ورفض الكتب السماوية ، وإلحاد بعض الفلاسفة وقبول بعضهم فكرة وجود « إله » تتمثل قدرته في « العناية الإلهية » أو في مجرد السيطرة على الكون وتنظيمه ، هذا مع عدم الإيمان بالرسالات والأنبياء ، والاهتمام بالإنسان كمحور للكون ، والعمل على إيساعده بالقضاء على الطبقية والإقطاع والطغيان ، وبإنشاء المجتمعات المثالية والدعوة إلى الديمقراطية ، بل إلى العالمية والسلام الدائم بين الشعوب .

وسار الأدباء في ركب الفلاسفة وانتصروا لهم ولكنهم سبقوهم إلى قلوب الجماهير إذ استطاعوا أن ينقلوا إلى القراء كل هذه الأفكار من عدالة اجتماعية ومقت للتعصب الديني والمذهبي والعنصري ، وتحكيم للعقل والعلم ، وإشادة بحق الشعب في اختيار حكامه ، كل هذا بأسلوب أدبي مشوق ، في قصيدة أو مسرحية أو قصة أو رسالة ، لما وقع أشد من المقالات الفلسفية الجافة ، والبحوث العلمية المستغلقة ، وهؤلاء الكتاب هم الذين بأفكارهم التحريرية وتبسيطهم للنظريات الفلسفية ، أحدثوا الثورة الفكرية التي سبقت الثورة الفرنسية الكبرى .

وبقدر ما كانت الفترة الأخيرة من عهد الملك لويس الرابع عشر تتميز بالورع والتقشف ، كان القرن الثامن عشر حتى عشية الثورة الفرنسية يلهو ويعيث ويتظرف ويسخر من المقدسات ، ويجري وراء المادة وجمع الثروة ويأخذ بحياة البذخ والترف ، وضرب كثير من الأدباء والمفكرين على هذا الوتر ، فسخروا أدهم وفلسفتهم لتأييد هذا الاتجاه ، فكان الأدب الماجن والأدب الساخر والأدب السافر ، وكانت الفلسفة المادية والمنطق التجريبي ، وكانت المناقشات العلمية الجافة والجدل الفلسفي العقيم ، وساعد على ذلك انتشار آراء بيكون ونيوتون ولوك وهيوم في الجزء الأول من القرن الثامن عشر ، وكانت أبرز ظاهرة في الأوساط الراقية اجتذاب الكتاب والعلماء والفلاسفة ، وإشراكهم

في الندوات الأدبية (الصالونات) التي كانت سيدات المجتمع يعقدنها في قصورهن حيث يتبارى المجتمعون بالنكتة اللاذعة ، واللمحة الظريفة ، واللفظة المنمقة ، وحضور الذهن وزلاقة اللسان .

وظهرت طبقة من الكتاب والمفكرين الأحرار شدتهم الصالونات إليها فترة ثم نفروا منها لضيقهم بقيودها وبسيف روادها وتفاهة أحاديثهم ، وانطلقوا يكتبون للرأى العام ، معبرين عن آرائهم بحرية وصراحة ، غير عابئين بما كانوا يلقونه في سبيل ذلك من عنت واضطهاد ونفي ومصادرة لمؤلفاتهم ، خرج هؤلاء الأدباء عن الجفاف الفكري والجمود الفلسفي وأخذوا يخاطبون المشاعر والوجدان ، ومهدوا السبيل لأدب جديد هو الأدب العاطفي .

ولقى هذا الأدب الجديد صدى عجيبياً لدى القراء من مختلف الطبقات ، فالشعب كان ينتظر صوته . يعبر عن آلامه وقلبا يصف بؤسه ، ولساناً يدافع عن حقه في العدل والمساواة والحرية ، ورواد المجتمعات الراقية بدأوا يملون حديث العلم والفلسفة ، وتطلعوا إلى حديث القلب والعاطفة ، فالإنسان ليس عقلاً فحسب بل هو أيضاً وقبل كل شيء وجدان ، وليس ثمة ما يحول دون إنطلاقه حراً مستقلاً عن المجتمع ، يعبر عن ذاته وعن وجوده بغير تحفظ أو تخرج .

كتبت مدام دي ديفان (١٦٩٧ - ١٧٨٠) تقول في رسالة بعثت بها إلى إحدى صديقاتها : « ألا تشعرين أبدأً بالملل ؟ حقاً إن خبراتك لكثيرة ولكن هناك أمراً واحداً لم تختبريه : هو الحب ولوعته وعذابنا ونحن نحاول عبثاً أن نتخلص منه ! » وكتبت مدموازيل دي لسيناس (١٧٣٢ - ١٧٧٦) بعد أن امتحنت بالحب مرتين : « ما أكثر الأشياء التي تزول بالموت وتفقد الحياة كل معانيها . . . ما عدا شيئاً واحداً لا يفنى هو الحب ، الحب القوي الصادق . . . دعك من الطموح والجري وراء المال والتطلع إلى المجد . . . كل

هذا مصيره الزوال . . أما الحب العارم المستبد فهو وحده يستحق منا الحياة . . . إن للألم في النفس سحراً يفوق كل لذة عرفناها .

وكان الشعر العاطفي الإنجليزي قد تزجج إلى الفرنسية فقرئت ليالى « يونج » وقصائد « أوسيان » ، وكلها تتحدث عن الحب واليأس ، والوحدة ، والذكريات ، والقبور والأطلال والأشباح ، والطبيعة الحزينة ، والأمواج الصاخبة ، والضباب القاتم ، والرياح العاتية . . . وهزت هذه الأشعار قلوباً كانت في انتظار من يحرك أوتارها ، وأشبعت في النفوس حاجة إلى الشعور بالحزن والرغبة في البكاء .

وفي هذه الفترة ظهرت مقالات روسو العاطفية فلقيت صدى عميقاً في النفوس وخركت القلوب وشحذت الخيال ، وطورت الفلسفة الاجتماعية النظرية وجعلتها فلسفة إنسانية روحية ، واستنحال المذهب العالمى إلى عقيدة تغلغت في نفوس كثير من الأدباء والمفكرين فصار حب الخير للبشر شعوراً حقيقياً أقرب إلى الشعور الدينى منه إلى مجرد مبدأ اجتماعى .

ولم يكن إحياء العاطفة والتعبير عن المشاعر كل ما نجاء به روسو ، فقد نادى أيضاً بحب الطبيعة واللود بها ، والفناء فيها ، والاستمتاع الجسدى والروحي بعناصرها ، بحيث تختلط الأحاسيس كلها فلا تترك في النفس إلا شعوراً عاماً بالغبطة والرضا .

وإذا كانت الطبيعة بالنسبة لروسو مصدراً للسعادة الروحية واللذة الحسية ، فقد كانت لغيره مصدرًا للتأمل في عظمة الخالق وإعجازه ، وصغر الإنسان وضعفه ، لمجد الله ويشكره على ما أسبغ عليه من خيرات الأرض والبحر والسماء ، ويشدو مسبحاً بحال الطبيعة وروعها .

وبجانب الاستمتاع باللذة الحسية والمتعة الروحية بين أنحضان الطبيعة أو التأمل في الخالق والإشادة بمحاسن ما خلق ، كانت النفوس المتعطشة إلى العاطفة

والمحرومة منها تبحث في الطبيعة عما يثير الشجن ، ويبعث الألم ، ويشعر بالضيق ويفضى إلى اليأس ، فكان بعض الناس يزينون حدائقهم بأطلال صناعية وينصبون قبوراً وهمية ، يطيلون الوقوف بها أثناء تجوالهم ، ويحملون أنفسهم على التأمل في الماضي والتحسر على من قضى من الأهل والأصدقاء ، والخروج من ذلك كله بصورة قائمة عن هذا العالم الفانى .

ولكن إغراء الطبيعة قد ولد في نفوس كثيرة الرغبة في البعد عن حياة الحضارة والتخلص من قيود المدنية ، والهروب إلى الحياة الطبيعية حيث لا تنافس ولا تناحر ولا أحقاد ، بل حياة بدائية تشبه حياة الرعاة كما كانت أشعار فرجيل تصورها ، حياة « أركاديا » التى كان روسو يحلم بها موطناً للفضيلة والسعادة ، ومسرحةً للحب العذرى بين قلبين طاهرين ، يتطارحان الهوى على أنغام الناي عند سفح تل أو فوق ربوة ، أو في ظل شجرة بالقرب من الغدير ، يحف بهما قطع صغير من الأغنام ، جزتها بيضاء صافية ، ونظراتها بريئة حاملة . كانت هذه أبرز سمات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر في فرنسا : حساسية مرهفة ، بحث عن المؤثرات العاطفية ، ولع بالطبيعة ، حلم بالحياة البدائية ، شغف بقصص الحب العذرى . . واجتمعت هذه الاتجاهات وتركزت وتبلورت بصورة رائعة وعبقرية ملهمة في كتاب برناردان دى سان بيير : بول وفرجينى .

وكان من الغريب أن يكتب سان بيير مثل هذه القصة الإنسانية الرقيقة وهو الذى أمضى حياته في اضطراب دائم وقلق مستمر ، منتقلاً من بلد إلى آخر سعيًا وراء المادة ، متطلعاً إلى المناصب والألقاب ، شاكياً من سوء حالته ، دائم التحدث عن نفسه ، في غرور أحياناً وأدعاء .

ولد جاك هنرى برناردان دى سان بيير بمدينة هافر فى ١٩ من شهر يناير عام ١٧٣٧ من والدين متوسطى الحال ، رغم ما كانا يدعيان من انتساب إلى إحدى الأسر النبيلة . كان أبوه مراقباً للملاحة فى ميناء هافر ، وكانت أمه تحنو عليه بصورة بالغة ، وربما كان تدليل أمه سبباً فى شدة حساسيته وحدة مزاجه ، وسرعة تقلبه ، وكثرة نزواته .

كانت دراسته عادية ، بدأها فى بيته ثم ألحقته أسرته بمدرسة صغيرة يديرها أحد القساوسة بمدينة كان ، وفى عام ١٧٤٩ قام برحلة إلى المارتينيك على ظهر سفينة تجارية يمتلكها عمه ، وعاد معها وقد زاد حسه إرهافاً وخياله اتساعاً ، وأرسله أبوه بعد ذلك إلى مدينة روان حيث أتم دراسته ونال الجائزة الأولى فى الرياضة ، كان ذلك فى عام ١٧٥٧ .

وماتت أمه فى نفس هذه السنة ، والتحق الفتى بمدرسة الطرق والكبارى التى أنشئت عام ١٧٥٨ ، ولكنه لم يفز منها بأية شهادة رسمية إذ أغلق هذا المعهد أبوابه فى السنة التالية .

ومر صاحبنا بعد ذلك بمغامرات كثيرة استمرت اثنى عشر عاماً ، حاول فيها أن يستقر على وضع معين ، أو يلتحق بعمل ثابت فى فرنسا أو خارجها ، ويكتنف هذه الفترة من حياته شيء من الغموض ، ويحلو لسان بيير أن يزيد هذا الغموض بما رواه هو عن نفسه فى مذكراته .

ومن رواياته التى لم تثبت صحتها أنه منح فى عام ١٧٥٩ رتبة فى سلاح الهندسة ، نتيجة التباس فى الأسماء بينه وبين أحد المرشحين للوظيفة ، واشترك هذه الصفة فى حملة « هيس » عام ١٧٦٠ تحت قيادة الكونت سان جرمان ، ولكنه ما لبث أن فصل من الخدمة لسوء تصرفاته ، ورجع إلى هافر حيث وجد أباه قد تزوج للمرة الثانية ، ولم تحسن زوجة أبيه استقباله فعاد إلى الجيش واشترك فى حملة مالطة عام ١٧٦١ كمشرف

هندسى على المواقع والاستحكامات ، ويفصل مرة أخرى لسبيين أولها أنه لا يحمل مؤهلاً رسمياً وثانيهما كثرة منازعاته .

ويقصد إلى باريس وينتحل لقب شفالبيه ، ويكسب عيشه من إعطاء دروس فى الرياضة ، ثم يفكر فى مشروع كبير يستطيع أن يجتذب به اهتمام الحكومة الروسية ، وهو إنشاء مزرعة اشتراكية عند بحيرة « آرال » ، وما أن تحتزم المشروع فى ذهنه حتى يشد رحاله إلى موسكو وليس معه إلا قليل من المال ، وفى طريقه يمر بأمستردام حيث يتعرف على صحفى فرنسى ، ويحاول الصحفى أن يحمله على التخلف فى أمستردام ، ويعرض عليه الزواج من شقيقته ، وكذلك وظيفة يكسب بها عيشه . ولكن سان بيير يرفض ويواصل طريقه ، وينزل بمدينة لوبيك ، ويحصل على مساعدة مالية من الشفالبيه شازو ، ثم يقصد إلى مدينة كرونستادت ، ومنها يصل إلى بترسبورج ، وبعدها إلى موسكو حيث يجد من ماريشال موينخ كل عناية ورعاية ، ويهتم بأمره الجنرال بوسكيه ومسيو دى فيلبوا الفرنسيان ويحصلان له على رتبة صف ضابط فى سلاح الهندسة الروسى ، ويتخلى عن فكرة مزرعة آرال ، ويرسل فى مهمة إلى فنلندا حيث تتاح له الفرصة لدراسة طبيعة هذه البلاد . وعند عودته إلى موسكو يجد أن الذين كانوا شملوه برعايتهم أصبحوا من المغضوب عليهم ، فيستقيل ويرحل إلى بولندا ويصل إلى وارسو فى بداية عام ١٧٦٤ ، ويقيم فيها خمسة عشر شهراً يعمل لحساب المقيم الفرنسى مسيو دى هينان ، ويتبادل الغرام مع إحدى الأميرات ، ولكنه لا يلبث أن يغادر بولندا بعد أن ضاق ذرعاً بها وبروسيا .

ويقضى سان بيير شهرين بمدينة درسد ، وتنشأ علاقة بينه وبين إحدى بنات الهوى ، ثم يرحل إلى برلين ، ويعرض عليه الملك فردريك رتبة فى سلاح الهندسة ويرفض سان بيير ، وكان رفضه حسب روايته

بإياء وشهم ، وتعتقد بينه وبين أحد مستشاري الملك صداقة متينة ، وعندما تبلغ هذه الصداقة حد الرغبة في تزويج سان بيير بابنة المستشار ، يرحل صاحبنا راجعاً إلى باريس .

ويعتقد والد سان بيير عام ١٧٦٦ ويترك لابنه مبلغاً ضئيلاً من المال ، ولكن البارون دي بروتوى يأخذه في رعايته ويشجعه على تدوين مذكراته وتسجيل رحلاته ، ويلتمس سان بيير رتبة في إحدى فرق المستعمرات فيجانب إلى طلبه ويلحق بجيش الملك في جزيرة « إيل دي فرانس » (عام ١٧٦٨) ، وهي جزيرة تقع شرق مدغشقر ، وكان المنتظر أن يستقر هذه المرة بعد أن وفق إلى الوظيفة الدائمة التي كان يحلم بها ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فقد صدم في أول أمره بعاصفة شديدة كادت تطيح بسفينته عند رأس « فنستير » أعقبها عاصفة أشد وأنكى بالقرب من مدغشقر ، ثم وجد أن العمل الذي سيضطلع به ، وهو الإشراف على ترميم حصن ولي العهد في مدغشقر ، لا يتفق ومزاجه ، فتخلى عنه وقصد إلى جزيرة « إيل دي فرانس » ، حيث اضطر إلى قبول وظيفة مدنية عادية ، أقل بكثير مما كان يتطلع إليه ، ودفعته روح المغامرة إلى أن يقترح على رؤسائه التصريح له بالقيام برحلة استكشافية حول الجزيرة الصغيرة ، وأجيب فعلاً إلى طلبه وشرع في رحلته ، ولكنه عاد منها ساخطاً بعد أن أثار عليه السلطات التي اتهمته بسوء معاملة الزوج . واعتري سان بيير شعور بالألم والمرارة من كل هذه الأحداث ، وانتابه مرض عصبي ، فطلب أجازة للاستشفاء والنقاهة يُمضيها في فرنسا بعد أن فشل في الزواج من إحدى بنات الأثرياء من المستعمرين . وسافر إلى باريس في أواخر ديسمبر عام ١٧٧٠ فوصلها في يونيو ١٧٧١ وقد توقف قليلاً في رحلته حول رأس الرجاء الصالح في جزر الأسانسيون . وفي باريس حاول أن يجد عملاً أفضل من العمل الذي تركه في الجزيرة ،

ولكنه أخفق ، وزاد الطين بلة أن دب الخلاف بينه وبين البارون « دي بروتوى » الذي ضاق ذرعاً به وبشكاواه المستمرة ، وضاعت سبل الحياة في وجهه ، فكانت اللحظة الحاسمة حين قرر أن يعتمد على مجهوده الشخصي وأن « يزرع حديقته بنفسه » ، وأن يستخدم قلمه في كسب عيشه .

وللمرة الأولى يكتشف سان بيير طريقه الحقيقي وموهبته الصحيحة ، واتصل بالأدباء من شعراء وكتاب وفلاسفة ، لا سيما جان جاك روسو ، وكان عام ١٧٧٢ بداية معرفته به ، وصار يجتمع معهم في صالون مدموازيل دي لسيناس الذي كان يمثل الاتجاه الجديد في الفكر والأدب ، ومهد له ذلك سبيل إبراز مواهبه وإحياء قدراته كأديب فنان ومفكر مبدع .

ففي أوائل عام ١٧٧٣ ظهر كتابه « رحلة ضابط من جيش الملك إلى إيل دي فرانس ، من البوربون إلى رأس الرجاء الصالح » ، في جزأين ، وقد استطاع بمساعدة الكاتب دالمير أن يجد ناشرًا للكتاب . وكان الكتاب جديداً في أسلوبه ومضمونه ، إذ لم يكن مجرد سرد لوقائع الرحلة وتسجيل لأسماء البلاد والأمصار ، بل كان وصفاً دقيقاً لمشاهد الطبيعة ، وانطباعاتها في النفس . وبالرغم من أن أسلوب سان بيير لم يكن قد استكمل بعد قوته وبراعته ، فقد بدأ رائعاً ممتازاً بالقياس بمن سبقوه .

وصادف الكتاب نجاحاً كبيراً لا سيما لدى القارئات ، ولع اسم سان بيير فجأة ، وقفز إلى مصاف أستاذه روسو صاحب مدرسة « الطبيعة الخارجية » — وكان الأدب من قبل يهتم « بالطبيعة الداخلية » أي النفس البشرية — وأصبح الأستاذ الأول في وصف هذه الطبيعة ، كما سيكون فيما بعد القصصى الأول في تصوير الحياة البدائية ، وما فيها من طهر النفس ونقاء الضمير ، والداعي الأول بين الأدباء إلى الإيمان بالله والتمسك بأهداب الدين والفضيلة ، والمدافع الأول عن

العناية الالهية والحكمة الالهية التي حددت لكل شيء
في الكون غاية يقصد إليها .

وتوسط له كبير أساقفة « إكسن » ليحصل على
معاش دائم . وتشجع سان بيير وشرع يعد كتاباً جديداً
« أركاديا »^(١) هو عبارة عن ملحمة ضخمة من خمسة عشر
جزءاً تصور المراحل الثلاث التي مر بها الإنسان :
الحياة الممجية ، ثم الحياة الطبيعية ، ثم عصر الفساد ،
ولكن الملاحظات والتحفظات التي أبداهَا أستاذه روسو
رغم موافقته على الموضوع عامة ، ثبّطت عزيمته سان
بيير وجعلته يكتفى ببعض فصول من الكتاب ليبدأ في
إعداد مؤلف آخر ضخّم على نسق كتاب فرنسيس
باكون « تاريخ الطبيعة » ولكن سان بيير عرف كيف
يحدد بحذق وحكمة أبعاد هذا المؤلف الجديد الذي أطلق
عليه اسم « دراسات في الطبيعة » والذي ظهر في ديسمبر
عام ١٧٨٤ في ثلاثة أجزاء . ومادة الكتاب ليست علمية
بالمعنى الذي يرضى العلماء المتخصصين ، ولكنها تبسيط
للعلم ، وتصلح للتدريس في مدارس الأطفال ، وهي
تهدف في مجموعها إلى البرهان على وجود الله خالق
الكون بما في هذا الكون من جمال وروعة ، وليس هذا
النوع من البراهين جديداً على الفكر الفلسفي ، ولكن
الجديد الذي جاء به سان بيير هو الاحساس بهذا الجمال
وتلك الروعة ، والأسلوب الوصفى الخلاب الذي
صور به الطبيعة وعبر به عن انطباعاته . ويرى بعض
النقاد أن سان بيير تفوق على أستاذه روسو بسحر
ريشته ، ودقة حسه ، وفيض مفرداته حتى قيل إنه
صاحب أول قاموس للألفاظ التصويرية والمشهد
الطبيعية ، وهو هذا الاتجاه يسبق الحركة الرومانسية .

(١) أركاديا : إقليم يوناني في العصر القديم كان يسكنه
الرعاة ، وكان مصدر إلهام الشعراء الذين صوروه على أنه مقر الطهر
والسعادة ، وأصبح الاسم يطلق الآن على المجتمع الوهمي الذي ينغم فيه
أهله بالحياة البدائية ، لا سيما حياة الرعاة .

وبقدر ما قوبل بالصد والتشكر في بداية حياته ،
قوبل بالاستحسان والاعجاب عقب ظهور كتابه ،
وانهالت عليه المنح من كل جانب ، واستطاع أن يسدد
ديونه وأن يدخر مبلغاً يحقّق به حلمه القديم في اقتناء
منزل صغير تحيط به حديقة جميلة .

وفي هذه الفترة الهادئة من حياته ، عاودته أحلامه
الفلسفية في صورة مجتمع صغير يعيش على الفطرة
والطبيعة ، وجلبت نفوس أهله على الخير والفضيلة ،
فكتب قصة بسيطة في هذا المعنى أراد أن يلحقها بأول
كتاب نشره : « رحلة إلى إيل دي فرانس » ، وكان
سان بيير حريصاً كل الحرص على ألا يصدر قصته هذه
إلا وهو مطمئن إلى نجاحها ، لا سيما أنه لم يكن ينبغي
اجتذاب القراء كما فعل في كتبه السابقة بوصف المشاهد
الطبيعية فحسب ، بل أراد أن يفرغ فيها كل فلسفته ،
حتى لا يشذ عن سائر كتاب عصره الذين لم يخل كتاب
لهم من الخواطر الفلسفية . ولذلك مهد لظهور قصته
بقراءتها في بعض الأوساط الأدبية ، وقوبلت
بالاستحسان إلا في صالون مدام « نيكور » - زوجة
وزير المالية - وكادت جميع السيدات الموجودات
يبيكين تأثراً بالقصة لولا ابتسامه ساخرة على شفّتي
الوزير وانتقاده مريرة على لسان صاحبة الصالون ،
ولكن سان بيير اطمان إلى حكم أصدقائه المخلصين ،
وصمم على نشر القصة غير أنه عدل عن إلحاقها
« بالرحلة إلى جزيرة إيل دي فرانس » ، وفضل لها
مكاناً يليق بها ، بعد أن هذبها وأعاد تهذيبها أكثر من
مرة ، فنشرها في كتابه « دراسات في الطبيعة » ،
وظهرت قصة « بول وفرجين » عام ١٧٨٧ ملحقة
بالجلد الرابع من هذا السفر الضخم .

وحظيت القصة البسيطة باقبال منقطع النظير ،
وتهاقت عليها القراء لا سيما القارئات من جميع الأوساط
وترجمت إلى عديد من اللغات ، ولم يكتف أصحاب

دور النشر بإعادة طبعها طبق الأصل ، بل يقال إن ٣٠٠ طبعة منها ظهرت بدون حق النشر .

وفي مقدمة طبعة عام ١٨٠٦ الفاخرة يتحدث سان بيير عما لقيته قصته من نجاح فيقول : « إن في هذه القصة ترفيهاً عن دراسات في الطبيعة وتطبيقاً لنواميس الطبيعة على الحياة السعيدة التي نعمت بها أسرتان فقيرتان . ولقد جاوز النجاح الذي صادفته كل أمل ، فنسج الكتاب روايات على منوالها ، واستوحى الشعراء قصائدهم منها ، وحظى المسرح بتمثيلات شبيهة بها ، وأطلق عدد كبير من الأسماء اسمي بول وفرجينى على مواليدهن وذاعت شهرة هذه القصة العاطفية في أوروبا كلها . وترجمت مرتين إلى اللغة الإنجليزية ومرة إلى كل من الإيطالية والألمانية والبولندية والهولندية وجاى . وعدت ترجمتها إلى الروسية والأسبانية . لقد أصبحت القصة تدرس في مدارس إنجلترا ، وأنا أعترف بأن نجاح القصة بهذه الصورة الاجتماعية يرجع الفضل فيه إلى المرأة لأنها تملك شتى الوسائل التي توجه بها الرجل نحو الأخذ بقوانين الطبيعة . ودليل ذلك أن أغلب التريجات تمت على يد السيدات أو الآنسات . وكم سرتنى أن أرى « ولدى » اللذين تبنيتهما يرفلان في ثياب غير التي عرفتهما بها . ولا ريب في أن « ولدى » مدينان للجنس الناعم بالشهرة التي ستمتد إلى الأجيال القادمة . فقد نظمت القصائد تشدو بمولدهما وترتق لموتهما وتنغى بمهدهما ولحدهما كما يتغنى الشعراء بالآثار القديمة . . . »

ثم يقول :

« . . . لقد أخبرنى أحد مواطنينا الذين هاجروا إلى إنجلترا ثم رجعوا إلى وطنهم أنه لم يجد مورداً للارتفاق في لندن غير بيع الكتب ، وأنه وجد في بيع قصة « بول وفرجينى » وحدها ما أغناه عن غيرها من الكتب . وساعده على العيش بسعة وبذخ . . . »

وحمدت الله على السعادة التي استطعت أن أوفرها لهذا المواطن بفضل كتابي ، وقد ذكرنى هذا الحديث بما يروى عن أهل أثينا عندما وقعوا في الأسر ، وأبعدوا إلى صقلية فكانوا لا يجدون مورداً لهم إلا لإنشاد أشعار أوريبيدوس ، فلما تيسرت لهم سبل العودة إلى أثينا أسرعوا إلى أوريبيدوس يشكرونه على ما كان لأشعاره من فضل عليهم .

وبعد « بول وفرجينى » أصدر سان بيير عام ١٧٨٩ كتابه « أحلام العزلة : ملحق بدراسات في الطبيعة » ، ثم قصة « الكوخ الهندى » عام ١٧٩١ ، والكتابان يترجمان أفكار الكاتب وخواطره الفلاسفية ويمثلان اتجاهه في وصف الطبيعة كفنان وفيلسوف وكان سان بيير قد بلغ أوج مجده ، وأدرج اسمه بين المرشحين لتدريس ولّى العهد . وفي عام ١٧٩٢ صدر أمر ملكى بتعيينه مشرفاً على حديقة النباتات بباريس ، ثم ألغيت الوظيفة في العام التالى وعوض عنها بمكافأة سنوية ، وفي ديسمبر ١٧٩٤ عين مدرساً بمدرسة المعلمين العليا ولكنه لم يبق طويلاً بها ، وفي عام ١٧٩٥ عندها أنشئ مجمع العلوم السياسية والحلوقية أختير واحداً من أعضائه الأربعين . . .

وكان سان بيير قد تزوج سنة ١٧٩٣ مندموازيل ديدو ابنة الناشر الذى نشر له كتبه ، وأنجب منها ولدين بول وفرجينى ، وبني لها أبوهما منزلاً بضاحية إيسون على نهر السين على مسافة من باريس ، واعتزل الحياة العامة تقريباً وتوفر على تربية ولديه ، وكتابة بعض المذكرات والمقالات ، وقد عومل معاملة كريمة في عهد الإمبراطورية وصرف له معاش دائم ومنح وسام الصليب .

ومن مؤلفاته الأخيرة : « دعوة إلى الاتفاق بمناسبة عيد الائتلاف » (١٧٩٢) - مقالات في الطبيعة والأخلاق (١٧٩٨) - « رحلة إلى سيليزيا » (١٨٠٧) - مسرحية

موت سقراط » (١٨٠٨) — « مقالة عن الصحافة »
(١٨٠٨) — « مقالة عن جان جاك روسو » — قصص
من الرحلات .

وتوفيت زوجته عام ١٧٩٨ بعد سبع سنوات من
زواج تخلله كثير من المنازعات ، ولم يمض عام حتى
تزوج مرة ثانية فتاة في مقتبل العمر عرفها عند إحدى
صديقاته في معهد للبنات . وكان هذا الزواج أسعد من
الأول وعاش مع زوجته الثانية حتى موته عام ١٨١٤ .

وقبل عام ١٨٠٦ فكر سان بيير في إصدار قصته
بول وفرجينى فى طبعة فاخرة مزدانة بالصور من رسم
مجموعة من كبار فناني العصر . ولكن المال كان يعوزه ،
فشرع فى جمع الاكتتابات ، وكان يعتمد فى تشجيع
الاكتتاب وتيسيره على قارئاته اللاتي أحسن استقبال
قصته عند أول صدورهما ، وهو ينوه بذلك فى مقدمة
الطبعة الفاخرة فيقول : « إن إقبال السيدات والآنسات
على قصتي هو الذى جعلنى أفكر فى أن أضفى عليها
كل مفااتن الطباعة الفرنسية والتصوير الفرنسى لتكون
جديرة بالجنس الناعم الذى رحب بظهورها » .

وقد عاب عليه كثير من الكتاب والصحفيين كثرة
الحديث عن نفسه وعن سوء حالته المالية ، وحاجته إلى
المساعدة ، وسعيه فى الحصول على الاكتتابات اللازمة
لإصدار الطبعة الجديدة ، وأشاروا إلى أنه غير جدير به
بعد ذبوع صيته أن ينحدر إلى هذا الدرك من الإلحاح
الذى يكاد يشبه الاستجداء ، فردد سان بيير على رئيس
تحرير « جورنال دى بارى » قائلا : « لو أننى لم أفقد
فعلا كل ثروتى ، لكان جوابى عليه أننى شغلت طوال
حياتى بمصالح الآخرين ، ومن حتمى اليوم أن أشركهم
فى التفكير بمصالحى ، أما وقد بلغت فعلا حالتي المالية
حد الافلاس ، فليس شىء يمنعنى من الشكوى ... » .
وكان دائم التفكير فى مصير ولديه فيقول فى مقدمة
الطبعة الفاخرة : « كان فى استطاعتى بصفتى رب أسرة

أن أصدر القصة باسم ولدى ، لا سيما أن قوانين الملكية
الأدبية لا تعطيهما حق الانتفاع بريعتها إلا مدة عشر
سنوات فقط بعد موت أبيهما ... » ويتحدث عن
صاحب المصرف الذى أفلس وأضاع عليه جزءاً كبيراً
من ودائعہ فيقول : « كنت عازماً على مقاضاته انقذاً
لمال ولدى ... » ثم يتكلم عن الدار التى يملكها قائلاً :
« لقد سلبنى كثير من الأفراد ما أمتلك من مال سائل
قلم أعد أتق بأحد ، أما هذه الدار فلا أظن أن الحكومة
تفكر يوماً فى انتزاعها من ولدى » .

وظهرت الطبعة الفاخرة عام ١٨٠٦ مزدانة بست
لوحات وبها مقدمة طويلة يبلغ عدد صفحاتها حوالى
نصف عدد صفحات القصة نفسها ، يتحدث فيها سان
بيير عن نجاح قصته وفضل النساء فى نجاح هذه القصة
وتما قاله مشيداً بمكانة المرأة « أن النساء قد ساهمن أكثر
من الرجال فى تكوين الشعوب وإصلاح أحوالها ،
لم يضيعن وقتهن سدى فى تدبيج المقالات الفلسفية وفى
المهاترات الأخلاقية ، ولم يعتلين المنابر ويتولين القضاء
وتطبيق الأحكام ، بل نشرن السعادة من بين أحضانهن
فنعم بها الأطفال الأبرياء ، والعشاق الأوفياء والأزواج
الخالصون ، والآباء الفضلاء ؛ هن اللاتي أرسين أسس
الناموس الطبيعى ... لا ينتمى النساء إلى وطن معين ،
يتبعن الجنس البشرى عامة ، ويستخدمن إحساساتهن
الطبيعية وعواطفهن فى تذكير الرجال بانسانيتهم ... هن
اللاتي يحفظن الشعوب والأجناس ... هن مصدر كل
ما يراه الرجال جميلاً فى الحياة ... يلهمن الشعراء
والفنانين ... ويحثن الرجال على الإقدام والطموح » .
ثم يخاطب النساء فيقول : « أنتن اللاتي روضتن الرجال
وعلمتن على محاربة القسوة والوحشية والاستعباد
والتعذيب ... أكرمتن بدموعكن الأبرياء من ضحايا
الظلم ، وأيقظتن فى الطغاة صوت الضمير ... إن
طبيعتكن الخيرة تكشف لكن بالفطرة عن مواطن
البراءة والمجد الحقيقى ... أنتن أزهار الحياة ... ومصدر

الحضارة ، تؤلفن بين الشعوب بالزواج أكثر مما تفعله السياسة بالمعاهدات والأحلاف . . أيتها الأمهات والمرضعات يا من عرفناهن أطفالاً ، ما أرق محاسنكن وأعظم فضائلكن . . لقد أسبغتن رعايتكن على الكاتب المنزل الذى حظى باعجابكن . . إن فى نظراتكن المتواضعة وفى أصواتكن العذبة ما يقلق سفسطة المتفلسفين ، ويذكر المتعصبين لأجناسهم بأنهم بشر قبل كل شيء ، وينبه الكافرين إلى حقيقة الوجود الإلهى . لدموعكن تأثير قوى فى إزالة الأوهام والأحتقاد ، ولا بتساماتكن الإلهية قوة فى تفنيد حجج المادية والالحاد .

ولعل هذا التمجيد للمرأة والإشادة لطبيعتها الخيرة ، وبمكانياتها فى المجتمعات الإنسانية عامة ، يرجعان إلى ما لقي سان بيير فى طفولته من تدليل أمه ومربيته ، وما قوبلت به قصته من إعجاب القارئات بصفة خاصة وما لقي من محاربة واضطهاد وسخرية من جانب الرجال لا سيما رجال الصحافة مما جعله يقول : « لقد مررت بكثير من المحن ، من ثورات وحروب وقضايا وإفلاس واقتراءات ودسائس إلى أن جاء بونابرت وأخذ بيده دفعة الحكم ، فأسكت الرياح التى كانت تعصف بالإمبراطورية ، وسيطر عليها ونفخ بها القلاع فسارت السفينة كما شاء لها أن تسير » . ويقصد سان بيير بالرياح أصوات الصحف ولغطها ، وكان بونابرت قد أصدر من القوانين ما كان كفيلاً بتقييد حرية الصحافة وتسخيرها فى تحقيق أهدافه « النبيلة » ، وكان بين سان بيير ورجال الصحافة عدااء مستحكم وهو يقول عنهم فى المقدمة المذكورة :

« إنهم أشبه بالقراصنة يعيثون فى الأدب فساداً ، يهاجمون أهل الشهرة ويتحالفون عليهم إذا كانوا من غير حزبهم ، يحاربون الأحياء منهم والأموات ، لا يرحمون الأدباء ، فلا يكاد الأديب الناشئ يهيم بالصعود حتى تشده الصحف فاما ينهار وإما ينضم

إليها . . . إن الصحيفة تريد أن تعيش ، فهى تهاجم حتى يرد عليها ، فتملاً بالردود أعمدها . . . »

ويتناول سان بيير فى المقدمة مسألة الشكل والمضمون بمناسبة ما وجه إليه من نقد بسبب إقحام نفسه فى الموضوعات العلمية فى كتابه « دراسات فى الطبيعة » ، فيقول : « يذكر رئيس تحرير « ديبا » أننى لا أصاح إلا كاتباً وأننى من كبار كتاب العصر ، وهذا أجمل تقرير يخطى به أحد . . فالشكل هو كل شيء أما المضمون فبعض الشيء . والمضمون لا يهم إلا نفرّاً قليلاً من المتخصصين أما الشكل فيهم الجمهور كله وهو الذى يقرر الشهرة والمجد . . وكان الرومان لا يعجبون بشيخرون إلا لأسلوبه ولا يابهون بغير ذلك فى خطبه » وينتقل بعد ذلك إلى أبواب الأدب فيفضل القصة عليها جميعاً ويقول : « إن القصص أمتع الكتب عند القراء وأكثرها انتشاراً وأجلها فائدة . . القصة هى الهة الأدب فى أوروبا » . أما عن المجد الأدبى فيقول سان بيير فى نفس المقدمة : « لا ريب فى أن المجد الأدبى هو الوحيد الذى يخلد ، بل به تخلد الأجداد الأخرى . . . ولكن للأسف لا يكاد كتاب يظهر حتى يتناوله الصحفيون بالنقد ، فيصفق الجمهور أو يصفر صدى لما تقوله الصحف ، وإذا صادف النجاح كتاباً من الكتب سطا عليه الطفيليون من الناشرين أو الأدباء ، فزيفوا أو اقتبسوا أو نشروا بغير إذن . . وماذا فى وسع الكاتب أن يصنع ، أيكف عن الكتابة ؟ بل ليكتب لا لشيء إلا لوجه الحقيقة ، فكما أن الضوء ينمى قدرات الجسد ، كذلك الحقيقة تنمى ملكات النفس والوجدان » .

كل هذه الخواطر أوردها سان بيير فى مقدمة طبعته الأخيرة لبول وفرجينى ليخلص منها إلى هذا القول : « إن قصتى العاطفية البسيطة ستكون مصدر شهرة لى لا تقل عن الشهرة التى كسبها هوميروس من وراء الإلياذة والأوديسة . . ومن يدرى ؟ لعل بفضل

أصدقائي وأعدائي خاصة ممن يظهرون الإشفاق بي والثناء لحالي ، أحظى بعد موتى بتمجيد يعوض ما تعرضت له في حياتي من هجوم بسبب كتاباتي السابقة التي لم أكن أبغى من ورائها إلا البحث عن الحقيقة .

ويذكر أخيراً في هذه المقدمة التي تعتبر صفحة أساسية في ترجمة سان بيير ، أنه لما عجز عن إتمام مشروعه رغم ما جمع من اكتتابات لم تكفى أجر الفنانين الذين كلّفهم بتصوير بعض مشاهد القصة ، لم يجد وسيلة غير الاعتماد على العناية الإلهية التي تمثلت له في شخص جوزيف بونابرت شقيق الإمبراطور الذي عرض عليه معاشاً سخياً من ثروته الخاصة . وفي إهدائه الطبعة الفاخرة إلى هذا الأمير يقول : « عسى أن تكون هذه الطبعة التي شرعت فيها لمصلحة ولدى بمقام نصب تذكاري شيدته أبوهما اعترافاً بفضلك عليه ! وإذا كانت العناية الإلهية قادت سفينة حياتي حتى الآن بين العواصف والأنواء ، فلا تزال الفرصة أمامي في السنوات القليلة الباقية من عمري لأواصل كتاباتي ، وإذا كانت مؤلفاتي الأولى ولدت في فجر عاصف ، فسوف تنضج مؤلفاتي الأخيرة في أشعة غروب هادئ . لقد وصفت السعادة العابرة التي عاش فيها طفلان بريثان نشأ في أحضان الطبيعة ، وسأحاول أن أصور السعادة الدائمة لشعب أعادته الثورات إلى قوانينه الأزلية . »

* * *

تبدأ قصة « بول وفرجينى » بعرض رائع لمسرح الأحداث التي تدور فيها ، فيصف لنا الكاتب الجانب الشرقى للجبل القائم في الجزء الخلفى من جزيرة « إيل دى فرانس »^(١) ، حيث الهدوء الشامل ، والصخور

الوعرة ، والأشجار الباسقة المتنوعة والسماء ذات الألوان المتعددة . ويقف الكاتب في تجواله عند بقايا كوخين حقيرين غنى عليهما الزمان ، ويلتقى هناك بشيخ أثقلتته السنون والهموم ، فيسأله عن مصدر هذين الكوخين فيقول الشيخ : « إنها قصة مؤثرة حقاً ولكن الناس اعتادوا أن يستمعوا فقط لقصص العظماء والملوك » ، فيعترض الكاتب قائلاً : « إن الإنسان مهما انحدرت أخلاقه وأعمته التقاليد ، تسهويه أحاديث السعادة إذا كان مصدرها الطبيعة والفضيلة » ويبدأ الشيخ في روايته .

في عام ١٧٢٦ جاء إلى الجزيرة المسيو دى لاتور ومعه زوجته هيلين ، وكانا قد عقدا زواجهما بفرنسا رغم معارضة أسرتهما الغنية في هذا الزواج غير المتكافئ^(١) وهاجر الزوجان على أمل أن يجدا فيه ما يساعدهما على العيشة الكريمة الميسرة ، ولكن المرض يفاجئ مسيو دى لاتور الذى يقضى نحبه تاركاً هيلين وقد حملت منه ومعها خادمتها ماري من سكان الجزيرة ، وتهرب هيلين من المدينة وتلجأ إلى هذا المكان المنعزل عند سفح الجبل ، وإنها « لغريزة عند البشر جميعاً أن يسعى الأشخاص ذوو الحساسية الشديدة والقلوب الحزينة ، إلى الأماكن المنفردة كأنما الصخور الجرداء ستحميهم من البؤس ، والطبيعة الهادئة تنسيهم الآلام » .

وتقابل هيلين مع سيدة أخرى « مرجريت » ليست أحسن حظاً منها ، جاءت هي الأخرى إلى الجزيرة تخفى عارها بعد أن أغراها بالزواج فتى من أسرة نبيلة في مقاطعة بريتانى بفرنسا ، وهى الفتاة الريفية البسيطة ، فصدقته وأسلمت إليه نفسها ثم تركها فهاجرت إلى إيل دى فرانس واستقرت في هذه البقعة

(١) في رأى سان بيير أن هذا الزواج غير المتكافئ يتعارض مع القوانين الطبيعية ومع الحكمة الإلهية التي نظمت الكون وودرت أموره ووضعت كل شيء في مكانه الصحيح فالخروج عنه خروج عن النظام الطبيعي وعن سنة الكون .

(١) جزيرة « إيل دى فرانس » : اسمها اليوم جزيرة موريس تقع شرق مدغشقر اكتشفها البرتغاليون ثم استولى عليها الهولنديون ثم احتلها الفرنسيون بعد احتلالهم جزيرة بوربون . وفي عام ١٧٢٢ تنازل عنها الملك لشركة جزر الهند الشرقية . واستولى عليها الإنجليز عام ١٨١٠ .

البعيدة عن المدينة ، ومعها خادم من زنوج الجزيرة يدعى دومنج ، وأقامت هناك تزرع الأرض وتأكل من ثمارها ، وقد وضعت طفلاً أسمته « بول » . وكأن العناية الإلهية أرادت أن تواسي كلا من هاتين السيدتين التبعيتين فألفت بينهما وتقول مرجريت لهيلين : « أراد الله أن ينهى آلامى فأرسلك إلى وملاً قلبك بالعطف على » . وهكذا يعمر الإيمان بالله قلب هاتين الصديقتين بعد أن ندمت كل منهما على خطيئتها ، وأسلمتا أمرهما إلى الحياة الجديدة ، حياة الفطرة والطبيعة ، وتتقاسمان المكان وتبنيان كوخين بمساعدة خادميهما والشيخ (الراوى) الذى أصبح بالمصادفة صديق الأسرتين ، والذى يترجم فى الحقيقة عن مشاعر وأفكار سان بيير .

وتضع هيلين مولودة هى « فرجينى » وتقول عنها « إن فضيلتها ستكون مصدر سعادتها كما كانت خطيئتي مصدر شقائى » . ويتزوج الخادم دومنج من الخادمة مارى ، وتشترك الأسرتان فى زراعة الأرض واقتسام المحاصيل وبيع الفائض منها فى المدينة ، وتربى مارى عزتين وبعض الدجاج ، ويحرس الحظيرة كلب اسمه فيديل أى « أمين » . وبهذه الصورة يكتمل المجتمع البسيط الذى أراد له سان بيير أن يعيش بعيداً عن الحضارة ، يرتزق من موارد الطبيعة ، ويعمل حسب قانونها ، الذى هو قانون الفضيلة والخير . ويقول سان بيير : « إن واجبات الطبيعة — أى الأشغال التى تفرضها المعيشة الطبيعية — كانت تزيد سعادة هذا المجتمع الصغير » .

ويشب الطفلان بول وفرجينى وهما يتناديان بأخى وأختى ، لا يفرقان بين هيلين ومرجريت فكل منهما أم للطفلين ، وما أجمل الصورة التى يصورها سان بيير لهذا الامتزاج بين هذين القلبين الطاهرين حين

يقول : « لم يكن ثمة أغرب من تعلق كل من الطفلين بالآخر ، فاذا شكوا بول أحضروا له فرجينى ، فيبتسم ويهدأ . وإذا أحست فرجينى بألم ، لا يكشف عن هذا الألم إلا بكاء بول ، وكانت الطفلة الطيبة تحاول إخفاء ألمها حتى لا يبكى أخوها من أجلها » . وما أبدع هذه الصورة البريئة إذ يقول الشيخ : « ما جئت مرة إلى هنا إلا رأيتهما عاريين كعادة الأطفال فى هذه البلاد ، وهما يدرجان متعانقين . وما كان الليل نفسه بقادر على التفريق بينهما ، كان لهما مهد واحد ينأمان فيه وخداهما ملتصقان وصدراهما متقاربان ويد كل منهما ملتفة حول عنق صاحبه وقد توسد ذراعه » . ويصف الشيخ هذه الوحدة الروحية بين بول وفرجينى عندما تجاوزا سن الطفولة الأولى فيقول : « كنت منحدرًا ذات يوم من قمة الجبل ، فرأيت فرجينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها وأسلتته على رأسها تتقي به المطر . وظننت لأول وهلة أنها بمفردها ، فما أن دنوت منها لأساعدها على السير حتى رأيتها ممسكة بذراع بول يضمهما إزار واحد وهما يتضحكان مغتبطين بهذه المظلة الواحدة التى ابتكراها لتحميهما من المطر ، ولقد ذكرنى منظر رأسيهما الجميلين تحت هذا الإزار المنتفخ بطفلى « ليدا وجوبير وقد حوتهما قوقعة واحدة » .

ويعمى الطفلان فى حياتهما الطبيعية البسيطة لا يتعلمان من محيطهما إلا تبادل الخدمات والتعاون ، لا يقرآن ولا يكتبان ، لا يعبان بأحداث الماضى ولا يتجاوز اهتمامهما حدود الجبال المحدقة بهما ، يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما ، لا يعرفان الخير المطلق أو الفضيلة المطلقة ، ولكنهما لا يفعلان إلا الخير ولا يسلكان إلا سبيل الفضيلة ، لا يتصوران الجمال إلا فى ما يربانه بالفعل جميلاً ، لم تكن يهما حاجة لمعرفة أن السرقة حرام فقد كان كل شيء مشتركاً بين

الجميع^(١)، ولم يرهبهما أحد بقوله إن الله ينزل أشد العقاب بالأبناء الجاحدين ، فقد خفق قلبهما بحب الأهل نتيجة حب الأهل لها ، ولم يتعلما من الدين إلا ما يجعل الدين محبباً إليهما . وإذا كانا لا يطيلان الصلاة في الكنيسة فهما أينما وجدا سواء في المنزل أم في الحقل أم في الغابة ، يرفعان إلى السماء أذرع الابتهال والبراءة ويقدمان لله قلباً عامراً بحب الوالدين^(٢).

ويصف لنا الكاتب الحياة اليومية في هذا المجتمع الطبيعي ، وكيف ينصرف بول بالفطرة إلى الأعمال الخشنة في الحقول والغابات وكيف تغنى فرجينى بشئون المنزل ، وتجري الأيام وتبلغ فرجينى الثانية عشرة من عمرها ، وتبدأ هيلين - مدام دى لاتور - تفكر في مستقبل ابنتها وهي تراها تنمو وتنضج كالثمرة اللبنة ، وهنا يدخل عنصر جديد في القصة هو عنصر القلق ، ويشعر القارئ أن ثمة حادثاً لا بد أن يقع ويظل يرتقبه بشغف ، ويقحم الكاتب علينا شخصية تفسد هذا الجو الروحي الجميل ، شخصية عممة مدام دى لاتور التي تقيم بباريس ، وهي عانس على جانب كبير من الثراء ، ولكنها غليظة القلب ، شاذجة الأنف ، تسيطر عليها النعرة الطبقية ، وهي لذلك تكره ابنة أخيها وترفض مساعدتها ، ولا تفتأ تذكرها بخطئها وتندد ببؤسها

(١) قد يبدو هذا السلوك متفقاً مع نظرية « كانت » في « نقد العقل العملي » إذ يقول إنه يجب أن تستمد القاعدة الأخلاقية من باطن النفس مباشرة ، ولا بد أن تكون لدينا مبادئ أخلاقية فطرية تنشأ في الإنسان بطبيعته فيستلهمها ويستوحىها دون أن يلجأ في تحديد سلوكه إلى علم وتجربة . وأن خيرية العمل لا تقاس بما ينتج عنه من نتائج طيبة أو بما فيه من حكمة ، إنما الخير هو ما جاء وفقاً لما يأمر به الواجب - ولكن الواقع أن نظرية كانت منصبة على الإدراك والتمييز الفطري بين الخير والشر أما سان بيير - ومثله روسو - فيقصدان السلوك الفطري في اتجاه الخير دون الشر .

(٢) يحسن بنا أن نوضح فكرة الطبيعة الخيرة التي نادى بها روسو وسان بيير ، فالسلوك الفطري كما ذكرنا يتجه نحو الخير أي أن الإنسان بطبيعته ميال إلى الخير ولكن هذا الميل الطبيعي إلى الخير قد يتغير إذا انتقل الإنسان من البيئة الطبيعية إلى البيئة الحضارية .

وتعاستها ، وتدعى أن الله هو الذي أراد لها هذا الشقاء ، وتواسيها مرجريت قائلة : « ما حاجتنا إلى أقاربك ، إن الله لم يتركنا وليس لنا أب غيره » . وترد عليها هيلين بقولها : « لم يأتنا الشقاء إلا من الخارج ، أما السعادة فهي فينا وبين أيدينا » .

وكانت الرسالة التي وصلت مدام دى لاتور من عمتها أول اتصال لأفراد هذا المجتمع بالعالم الخارجي ، وأول تجربة لبول وفرجينى لمعرفة أن هناك نفوساً لا تحب الخير . أما التجربة الثانية فهي التي مرت بها فرجينى عندما حاولت أن تعيد زنجية هاربة إلى سيدها ، وتطلب منه الرحمة بها والصفح عنها ، فقابلها صاحب الأرض هي وبول بنظرات قرأت فيها الغدر والقسوة ، فأدركت أنه ليس من السهل أن تأتي الخير دائماً .

ولا يفتأ سان بيير يمجّد المرأة في قصته فهو دائماً يضع على لسان مرجريت وفرجينى كلمات الرحمة والحنان والتشجيع والإيمان والحكمة . تقول فرجينى لبول عندما يضللان الطريق ويتلهفان إلى جرعة من الماء « إن الله لا بد مشفق بنا فهو يستجيب لنداء العسافير وهي تسعى لرزقها » وما أن تنتهي فرجينى من كلامها حتى يسمعا خريز ماء فيهرعان إلى نبع قريب ويرتويان منه . وإذ تنهار قوى بول ويأخذ في البكاء بعد أن بحث عن طريق يوصلهما إلى الكوخ فلا يجدان ، فتقول له فرجينى : « لنضرع إلى الله ، فلا بد أن يستجيب لصلواتنا » . وما إن تفرغ من كلامها حتى يبلغ سمعهما نباح كلبهما « فيديل » .

ولا ينسى سان بيير وهو يروي القصة على لسان الشيخ أنه من كتاب القرن الثامن عشر وأن القصة في هذا العصر لم تكن في يوم من الأيام هدفاً في ذاتها بل وسيلة للتعبير عن الأفكار الفلسفية أو الخواطر العلمية ، أو الاتجاهات الفكرية بصفة عامة . لذلك نرى القصة تتخللها باستمرار تعليقات من هذا النوع اعتبرها بعض

النقاد حشواً كلامياً واعتبرها بعضهم أمراً طبيعياً بالنسبة
لكاتب في هذا العصر .

ونجد سان بيير يسهب في بعض فصول القصة في
وصف النباتات في هذه المناطق الحارة وطرق الزراعة
فيها ومواسمها وأنواع المحاصيل ، مستغلاً في وصفه
هذا معلوماته الخاصة التي حصل عليها في رحلاته
العديدة والتي أودعها قبل ذلك فصول كتابه « دراسات
في الطبيعة » .

ثم نجد الشيخ لا يمر بأثر من الآثار القديمة إلا
وقف عنده ويصف شعوره ، متمشياً في ذلك مع
الاتجاه الجديد الذي ظهر في الجزء الثاني من القرن الثامن
عشر كما سبق أن ذكرنا في بداية بحثنا . يقول الشيخ :
« مهما كان سرورى عظيماً كلما وقع نظرى أثناء رحلاتى
على تمثال قديم أو أثر من الآثار ، فهو لا يعدل اغتباطى
بقراءة النقوش المخطوطة على هذه الآثار ، حينئذ يخل
لى أن صوتاً بشرياً ينبعث من الحجر آتياً من أعماق
الزمن ، مخاطباً الإنسان وسط البعد ، ليدكره بأنه
ليس وحده في هذا الوجود ، وأن آخرين مثله عاشوا
في هذه الأماكن بمشاعرهم وأفكارهم وآلامهم . وإذا
كان هذا النقش من آثار أمة اختفت من الوجود ،
انتقل بأرواحنا على أجنحة الانهائية ، وبعث فينا
الإحساس بالخلود لأنه يمثل فكرة أو صورة تغلبت على
الفناء وبقيت حية ناطقة من وراء الأطلال » .

ويصور لنا سان بيير هذه السعادة التي كان يحلم
بها الفلاسفة بالنسبة لسكان البيئة الطبيعية ، والتي تملأ
الآن قلوب أفراد مجتمعتنا الصغير . تقوم هذه السعادة
أولاً على العمل والاجتهاد فترى بول ودومنج يحولان
بجهودهما هذه البقعة القفر إلى جنة فيحاء ، وتكون
السعادة أيضاً في السلوك وفقاً لأحكام الضمير فترى
السيدتين وولديهما لا يقصدان إلى المدينة إلا لمواساة
المرضى ومد يد المساعدة للمحتاجين .

وأصحابنا يعيشون في سعادة لأنهم لا يعرفون
الحسد والطمع والاعتياب والقيمة ، بل يعتمدون على
مجهودهم وعلى العناية الإلهية ، ويسمرون في قراءة
التوراة والإنجيل ، والاستماع إلى قصص البائسين
والمشردين ، وينشدون أحياناً الأناشيد ، ويرقص بول
وفرجينى على أنغام الطبول ، أو يقومون بتمثيل فصول
من التوراة بالاشتراك مع خادميها .

كان الصبيان يعتمدان في كل شيء على الطبيعة ،
يعرفان الوقت باتجاه ظل الشجرة ، وقياساً سنوات
عمرهما بطول النخلة التي زرعت عند مولدهما ،
« لا يعرفان من أحداث التاريخ إلا حياة أهلهما ،
ولا من الزمان إلا حياة الأشجار التي زرعاها ، ومن
الفلسفة إلا بذل الخير للجميع والاستسلام لإرادة الله » .
لا هم يشغلهم ، ولا شهوة تفسد عليهما قلبيهما ، ولا
نزوة تعكر عليهما صفو حياتهما بل حب طاهر وتقوى
خالصة ومناجاة روحية كأنها ترانيم الملائكة : يقول
بول : « عندما أشعر بالكد والتعب ، تنسينى رؤيتك
كل آلاى ، وإذا وقع نظرى عليك وأنا على قمة الجبل
وأنت في الوادى ، خيل لى أنك برعم من وردة حمراء
تطل من البساتين . . . مهما غبت عن ناظرى بين
الحمايل ، فلا أحتاج لرؤيتك لأعرف مكانك ، إن
شيئاً ينطلق منك لا أعرف كنهه ، استنشقه في الهواء
الذى يتهدى حولك ، وألمسه في الحضرة التي تجلسن
عليها . عندما أقرب منك تخليين كل حواسى . إن
زرقة السماء أقل جمالاً من زرقة عينيك . . إذا لمسك
طرف أصبعى رجفت كل أوصالى . . » وترد عليه
فرجينى قائلة : « يا أنخى ! إن أشعة شمس الصباح فوق
هذه الصخور لا تبعث في نفسى من السرور والبهجة
قدر ما يبعث فيها وجودك بجانبى . . إنك تسألنى عن
مصدر حبك لى ، فاعلم أن كل كائن ينشأ معاً
يتآلفان ويتحابان . انظر إلى طيورنا ، فقد شبت في
عش واحد ، وحباها المتبادل لا يقل عن حبنا . إننى

أرفع دعائي إلى الله أن يحفظ كل فرد في أسرتنا ،
ولكني إذا ذكرت اسمك بالذات زاد دعائي حرارة
وقوة ... » .

وتنتقل فرجينى من مرحلة الطفولة إلى سن المراهقة
ويطراً على حالتها العامة تغير واضح ، ويصور سان
ببيرة هذه الفترة من تطور أحاسيس فرجينى ومشاعرها
تصويراً بارعاً ، لأن الفتاة تختلف عن سائر بنات
جنسها ، نشأت بين أحضان الطبيعة ، ولم تنصت إلا
لصوت الفضيلة ، لم تقرأ قصص الغرام ولم تختلط
بفتيات من سنّها يفسدن عليها تفكيرها ، ولم تتصل ببول
حتى السابعة إلا اتصال الأخت بأخيها ، ومع هذا
« أخذت فرجينى منذ مدة تحس بألم لا عهد لها به ،
وقد شحب وجهها ، ووهن جسمها ، واستحالت
زرقة عينيها ، وتسربت إليهما خطوط داكنة ، وغام
صفاء جبينها ، وتوارت الابتسامة من ثغرها ، فتراها
مرة مرة وهى لا تدري سبباً لمرحها ، ومرة مكتئبة
وهى لا تعرف سبباً لحزنها ، هجرت ألعابها البريئة
وطرحت أشغالها اليدوية السهلة المسلية ، وتجنبت الناس
حتى أسرتها الحبيبة . ولجأت إلى الخلوات ، تبحث عن
الراحة والاستقرار فلا تجد راحة هناك أو استقراراً ،
حتى إذا وقع نظرها على بول فى بعض غداواتها أو
روحاتها ، طارت إليه فرحاً وسروراً ، ولكنها لا تكاد
تدنو منه حتى تجمد فى مكانها . وترحف الجمرة إلى
خديها ، ولم تجسر عيناها أن تستقرا فى عينيه . . . فإذا
حاول أن يضمها إلى صدره تملصت من بين يديه
وركضت نحو أمها هاربة مضطربة . . . » .

« . . . كانت تهض من فراشها ليلاً وتجلس مطرقة
ثم تعود فتستلقى ولكنها لا تجد إلى النوم أو الراحة
سبيلاً ، فتخرج فى ضوء القمر وتتجه نحو الغدير ثم
تنزل إلى الماء . . . فتتذكر أيام كانت تستجم فى نفس
هذا المكان مع بول . . . وترى ظل النخلتين المزروعيتين
عند مولدهما ينعكس على ذراعيها العاريتين وفوق

صدرها ، وتفكر فى صداقة بول التى هى أذكى من
أريج الأزهار وأنقى من مياه النبع ، وأقوى من
سعات النخل الملتصقة ، ثم تنهد وتعود فتفكر فى
الليل ووحشته فتحس بلهيب يتأجج فى صدرها ،
فترتدى ثيابها وتهرع إلى أمها تلوذ بحنانها ، وتأخذ
بيدها وتظل تضغط عليها بشدة ، وتود أكثر من مرة
أن تنطق باسم بول ، ولكن لسانها يحتبس فى فمها ،
فتلقى رأسها على صدر أمها وتبalle بالدموع ، وتحاول
الأم أن تهدئ من روعها فتقول لها : « اضرعى إلى
الله فهو مالك الصحة والحياة ، واعلمى أننا لم نخلق فى
هذا العالم إلا كي نمارس الفضيلة » .

وتفكر هيلين ومرجريت جدياً فى زواج ولديهما
ولكن صغر سنهما يجعلهما ترددان . ويتدخل القدر
ليبرهن على أن العناية الإلهية التى دبرت شئون الكون
ووضعت كل شئ فى مكانه ، لا تسمح أن يمس
نظامها بغير جزاء ، فهاتان الأسرتان السعيدتان تدينان
بالسعادة لحياة البداوة والطبيعة ، حياة القناعة والرضى
حياة البساطة والمحبة ، وقد رتبنا أمورهما على هذا
الوضع ، وعاشتا حتى الآن فى نعيم لا يشوبه قلق اليوم
أو هم الغد ، إلى أن وصلت مدام دى لاتور رسالة
ثانية من عمته المقيمة بباريس تدعوها إلى العودة إلى
فرنسا أو ترسل إليها ابنتها فرجينى لتبىء لها مستقبلاً
أفضل ، وتيسر لها الزواج من رجل ثرى يليق بأسرتها ،
وتكتب لها كل ثروتها .

وقعت هذه الرسالة من نفوس الجميع موقع
الكارثة ، وحاولت مدام دى لاتور أن تطمئن صحابها
إلى أنها لن تستجيب لرغبة عمته ، ولكن حاكم الجزيرة
الذى وصلته أوامر من السلطات الفرنسية أخذ يضغط
عليها . وتخضع مدام دى لاتور ، وتسعى لإقناع فرجينى
فتفرضي إليها ابنتها بما تشعر به من نحو بول وفى ظنّها أن
أمها لا تعرف عن سرها شيئاً . ويقول سان بيير فى
ذلك : « تظن الفتاة العاشقة أن سرها لا يعرفه أحد .

فهى تحجب عينها بنفس الخمار الذى تحجب به قلبها ،
فاذا ما أزاحت يد صديقة طرف هذا الخمار ، انطلقت
الشكوى تعبر عن آلامها الدفينة ، وكشف القلب عن
مكنون سره ، محطماً سياج الخفر والحياء . . لقد
اطمأنت فرجيني إلى عطف أمها ، فأطاعتها على ما كان
يخدم في وجدانها من معارك لا يعلم غير الله عنها
شيئاً » .

وتقتنع فرجيني ويتقرر موعد السفر ، ويحين جنون
بول ، وتصرح له أمه للمرة الأولى بأن أسرته لا تتكافأ
مع أسرة فرجيني وأنها حملت به سفاحاً ، أى أن لا
أب له ، ولا يدرك بول معنى هذا الكلام ، فكل
ما ينغص عليه عيشه أنه وفرجيني سيفترقان ، ويجتمع
بول بفرجيني ذات ليلة قبل الرحيل ، وتجرى بينهما مناجاة
من أروع ما كتب من الشعر المنشور ، تترجم عن الحب
العذرى في أجمل صوره وأبدع ألوانه . وتنتاب بول
نوبات من الحزن تقترب من الجنون فيصبح بأم فرجيني :
« أيتها الأم القاسية المجردة من كل عاطفة ، عسى هذه
البحار التي تعرضين ابنتك لأهوالها لا تعيدها لك بعد
اليوم ! ليت هذه الأمواج تحمل إليك جثتي وتدفن
بهما فوق صخور الشاطئ ، فتزل في نفسك بعد موت
ولديك حزناً مقبياً ولوعة دائمة ! » .

وتسافر فرجيني بغير وداع من حبيبها ، ويبقى
بول وحده يطوف بكل موقع كان عزيزاً على فرجيني
يخاطب الأغنام والطيور وكلبه فيديل ، ويتسلق الصخرة
التي تشرف على الأفق البعيد حيث توارت السفينة التي
رحلت بفرجيني ، وإذا جلس إلى المائدة تحدث إلى
شبح محبوبته وقدم لها الطعام كما اعتاد أن يفعل ،
ويظل هكذا يهذى فاذا رجع إلى صوابه أخذ في البكاء
حتى تخنقه العبرات .

وتمر الأيام ، ويحاول الشيخ أن ينسى بول أحزانه
فيشجعه على الدرس ، ويقبل بول على التعلم بشغف

لمعرفة أخلاق القوم الذين تعيش فرجيني معهم ، وهنا
يصف لنا الكاتب كيف يكون الحب مصدر الاجتهاد
والعلم والفن والإبداع ، ويترسل في انتقاد المجتمع
الحضري وانتقاد ما يدرس للطلبة من جغرافية سياسية
وتاريخ سياسي ، مفضلاً لهم قراءة القصص لأنها تهتم
بمصالح الناس ومشاعرهم لا سيما إذا كانت تدور حول
الفضيلة وليست من نوع القصص العابثة المعاصرة :

ويعتاد بول الخروج مع الشيخ فيجلسان في ظل
شجرة كانت فرجيني قد زرعها ، وينتظر الكاتب
فرصة هذه الفترة الراكدة في سير القصة فيعرض على
لسان الشيخ بعض جوانب فلسفته ، فيتحدث عن
الوحدة والعزلة حيث يقول : « إذا كانت الزوجة
الصالحة أعلى مراتب السعادة فالعزلة والوحدة أقل
درجات التعاسة . العزلة هي المرفأ الأمين لكل هارب
من ظلم الناس ، ولهذا يكثر الرهبان والنسك في البلاد
التي يسام الشعب فيها الذل والعذاب ، والوحدة ترد
للإنسان بعض سعادته الطبيعية ، لأنها تقصى عنه شرور
المجتمع ، ففي مجتمعاتنا الموزعة إلى مذاهب وشيع ،
تعيش النفس في اضطراب دائم ، بينما لا تغير هذه
الأوهام بالا في حالة العزلة والانفراد ، بل تسترد
كيانها ، وتشعر بوجودها وتحس بالخلق والخالق .
تساعد العزلة على تكامل الجسد والوجدان ، ويكون
المعمرون دائماً من فئة المنفردين المنعزلين . . . والعزلة
ضرورية كذلك لسعادة الناس في المجتمعات المتحضرة
لأن السبيل الوحيد لاستمرار المتعة الوجدانية ، واستقرار
السلوك الفردي في الحياة ، هو الفرار بالنفس وتطهيرها
من رواسبها ، فتتركز فيها آراؤنا ولا تنفذ إليها آراء
الغير . ليس معنى هذا أن يعيش الإنسان دائماً بمفرده ،
فالحاجة المشتركة تربطه بسائر البشر ، يكرس لهم نشاطه
ويعمل من أجلهم ، كما أنه يكرس للطبيعة كل حاسة
من حواسه ، لأن العناية الألهية أعطتنا أقداماً لنسير بها
على وجه الأرض ، وورثين لنستنشق بهما الهواء وعينين

لنرى بهما الضوء ، أما القلب فقد اختص الله به نفسه » :

ويتحدث عن الطبيعة والحياة الطبيعية فيقول :

« بعد أن ابتعدت عن طريق الناس وابتعدوا عن طريقى ، لم أعد أكرههم بل صرت أرثى لحالمهم . . . ولم أجد استجابة إلا من ذوى القلوب النقية الطاهرة ، إن الطبيعة تفتح للجميع صدرها وتدعوهم إليها جميعاً ، ولكن كل فرد يحاول أن يفسر هذه الدعوة حسب هواه ، وقد استجاب كثير من التعمساء الذين دعوتهم إلى ممارسة الحياة الطبيعية ، ولكنهم لم يقبلوا عليها رغبة في ترك حياة الحضر ، بل طامعين في الثروة والجاه ، فاذا علموا أنني أدعوهم لأصرفهم عن الثروة والجاه ارتدوا ورموني بالتعاسة والبحث عن الشقاء ، وأخذوا على ميلي للعزلة ، وادعوا أنهم وحدهم يخدمون الإنسانية » .

ويذكر فناء الإنسان فيقول : « إن الأشياء التي نراها كل يوم لا تبعث فينا الشعور بسرعة الحياة ، لأنها تنمو وتكبر معنا فلا نحس بشيخوختها ، أما الأشياء التي تقع عليها العين فجأة بعد فراق طويل ، فتنبهنا إلى السرعة التي يجرى بها تيار الحياة » .

وينتقد المجتمع الحضري والفرنسي بالذات ، حيث يشتري كل شيء بالمال حتى الوظائف والألقاب ، فالاحترام الذي كان في الماضي نصيب أهل الفضيلة صار الآن قاصراً على ذوى المال . ولا يصل إلى الثراء إلا من باع ضميره ، أما قول الحق فلا يجلب سوى العداوة . والإنسان سعيد الحظ هو الذى توجده العناية الإلهية في بيئة بدائية لا كذب فيها ولا رياء ولا تملق ، بل بذل وتضحية في سبيل الغير إرضاء لوجه الله ، وهذه هي الفضيلة بعينها .

ويعر عامان ونصف عام ، ولم يصل من فرجينى غير رسالة واحدة تبدى فيها استياءها من الحياة

الاجتماعية التي تحملها عمة أمها على ممارستها ، وتتحسر على الأيام الماضية ، وتوئمل أهلها في قرب عودتها إلى الجزيرة ، ويمضى بول يعد الأيام ، يتسلق الصخور يرقب منها السفن القادمة ، معللاً النفس بأن السفينة التي ستأتى بفرجينى لا بد أن تطلعه يوماً من الأفق البعيد ، ويتصور كيف سيلقاها وكيف سيقبىان معاً في عش واحد يبنيه بيده ، وفجأة تعاوده الأحزان والمهوم وتساوره الظنون والشكوك ، فيتهم فرجينى بالتنكر له والتخلي عنه ، ويستولى عليه اليأس ، ويكره العمل ، وينفر من حوله ، ويتمنى لو أن حرباً اندلعت ليلقى نفسه في أتونها . ويقول له الشيخ : « إن الشجاعة التي تدفعنا إلى الاقدام على الموت هي شجاعة لحظة واحدة ، والحافز عليها يكون عادة إعجاب الناس بنا ، ولكن هناك شجاعة أندر وأعظم تجعلنا نحتمل كل يوم محن الحياة في استخفاء وتواضع : هي الصبر . ولا يعتمد الصبر على رأى الآخرين فينا أو على أهوائنا بل على إرادة الله » .

وفي صبيحة يوم تظهر في الأفق سفينة ويخرج رائد الميناء لاستقبالها بعرض البحر ، ويعود منها محملاً برسائل من بينها رسالة من فرجينى تنبئ فيها أمها أنها قادمة من فرنسا على ظهر هذه السفينة نفسها ، وتعم الفرحة جميع أصدقائنا بهذه المفاجأة السعيدة ، فقد عاد إليهم ملاكهم المحبوب فرجينى ، ويخرج بول لاستقبال السفينة وهو لا يمالك نفسه من فرط السعادة ، وينتظر هو والشيخ عند الشاطئ ، ولكن الأخبار تترى بأن السفينة لن تتمكن من دخول الميناء لشدة النوء وأنها مهددة بالغرق ، ولا تمضى لحظات على هذه الأنباء حتى تهب عاصفة شديدة وترطم السفينة بأحدى الصخور الضخمة المتناثرة خارج المرفأ . . . وإذ يرى بول هذا المشهد يقفز إلى البحر ويسبح محاولاً الوصول إلى السفينة ، وتبدو فرجينى على ظهر المركب وتلمح صديقها وهو يصارع الأمواج ، وقد ألقى جميع البحارة أنفسهم في

الماء وأخذوا يسبحون نحو الشاطئ ، ولم يبق غير بحار واحد راح يتوسل إلى فرجينى أن تخلع ثيابها ليتمكن من حملها على ظهره والسباحة بها ، وبأبى الحياء على فرجينى أن تنتزع أية قطعة من ملابسها وتوثر أن يبتلعها الموج من أن يחדش حيائها . ويحمل الموج فرجينى جثة نامدة إلى الشاطئ ، ويأمر حاكم الجزيرة أن يشيع جثمانها الطاهر فى احتفال مهيب اشترك فيه كل سكان الجزيرة ممن عرفوا أفضالها ، وكانت الفتيات يجهنسن بالبكاء وهن يلمسن نعشها تبركاً بها وتقديساً لها .

ولم يعيش بول طويلاً بعد موت فرجينى ، فكان يقضى سخابة نهاره هائماً متنقلاً بين الآثار التى خلفتها فرجينى ، ساهماً أحياناً وأحياناً باكياً أو مصلياً أو مناجياً أخوته ومحبوته ، ويحاول الشيخ عبثاً أن يلقى شيئاً من البلسم على هذا القلب الجريح قائلاً : « إن الندم لا يجدى . . . والموت أمر محتوم فحياة المرء وما يتخللها من أمان وآمال ومشروعات أشبه ببرج مرتفع فى قمته الموت . . . ومن حظ فرجينى أنها فارقت الحياة قبل أهلها جميعاً ، لأن رؤية الموت أشد إيلاماً من الموت نفسه ! إن الموت من حسنات الله على البشر ، إنه الليل الذى يريح من هم النهار ، ففى سبات الموت تهدأ الآلام وتسكن الأمراض وتبدد المخاوف . والله يمنح الفضيلة قوة لاحتفال بحياة ، وهذا برهان على أن الفضيلة وحدها تجدد السعادة فى هذه المحن . فاذا أراد الله لها الخلود عرضها لمحنة الموت ، واختبر شجاعتها ، وعندئذ تصبح هذه الشجاعة مضرب المثل ، وتثير ذكرى آلامها دموع الأجيال بعدها ! . . . الله موجود يا بنى والطبيعة كلها تسبح بوجوده ، وشروع الناس هى التى تدفعهم إلى إنكار عدالته لأنهم يخافونها . إن الاحساس بوجود الله كامن فى وجدانك وأعماله تتجلى أمام ناظريك . أتظن أن الذى دبر السعادة للناس على الأرض بحكمة لا تعرفها ، عاجز عن توفيرها للراجلين عنا بحكمة أخرى لا تعرفها ؟ لو أتيتح لنا أن نفكر وننحن

بعد لم نخرج من العدم ، هل كنا ننصور وجودنا على صورته الحاضرة ؟ والآن ونحن فى هذا الوجود المضطرب المظلم هل نستطيع أن نتبأ بما سنؤول إليه بعد الموت ؟ هل كان الله بحاجة إلى هذا العالم المحدود ليستخدمه مسرحاً لعقله الالهى ، ألم يكن فى مقدوره بذر الحياة فى غير حقول الموت ؟ . . . » وينتهى حديث الشيخ ويشعر بول بقوة الفضيلة وبما فى الموت من عزاء عن هذه الدنيا الزائلة ، وبما فى الآخرة من سعادة تنتظر أبناء الفضيلة ، فيطلب الموت ويشتهي لينعم مع فرجينى بحياة هنيئة خالدة . وتشاء الصدفة أن تشاهد كل من مرجريت وهيلين رؤيا واحدة فى نفس الليلة ، تظهر لهما فيها فرجينى وهى تدعوهم جميعاً إليها ، ويتحقق الحلم ، ويلحق بول بحبيبته ولم يكن قد مضى على موتها غير شهرين ، وتلحق به أمه بعد ثمانية أيام ، وتموت مدام دى لاتور بعد شهر ، ولا يعيش الخادمان طويلاً بعد هذه الأحداث ، وهكذا تخلو الربع من سكانه جميعاً حتى من الكلب فيديل الذى نفق حزناً على أصحابه . ويدفن الجميع فى نفس المكان الذى عاشوا فيه وفى بطن الأرض الطيبة التى أفاضت عليهم بخيراتهم ، فى هذا « الوادى السعيد » تحت ظل شجرة الخيزران .

وتنتهى رواية الشيخ بهذه الكلمات المؤثرة :

« أمها الأصدقاء الأحباء ، إن هذه الغابات التى أظلتكم أشجارها ، وهذه الغدران التى جرت من أجلكم مياهها ، وهذه التلال التى ترقدون عند سفحها لا تزال تندب فراقكم ، ولم يقو أحد بعدكم على زراعة هذه الأرض المهجورة ، أو رفع جدران هذه الأكواخ المتساقطة ، لقد فرت عززاتكم إلى البرية ، وجفت كرومكم ، وهربت طيوركم ولم يعد يسمع فى قاع الوادى غير الحداة والغربان نحوم فوق الصخور . أما أنا فنذ أفتقدكم أعيش كالصديق الذى فقد كل أصدقائه والوالد الذى ثكل فى جميع أبنائه أو المسافر

الذى ضل طريقه وبقي هائماً على وجه الأرض وحيداً فريداً» .

ويبتعد الشيخ وقد خلا الوادى إلا منه ويقول الكاتب : « لقد جرت دموعي أكثر من مرة وأنا أستمع لروايته » .

« إنها قصة حلم من الحب الجميل ، الحب الطاهر النقى الذى تود الإنسانية أن تشهد مثله من وقت لآخر لتستريح من عناء الحقيقة القاسية ، قصة حب ساذج ، انتزعت من تاريخ القلب البشرى ، وبقيت نقية مبللة بالدموع ، مثيرة للدموع ، إن هذه الأحداث البسيطة التى تحكى مولد طفلين وجهما العذرى ثم فراقهما القاسى ثم الأمل فى العودة يكذبه الموت ، إن هذين القبرين المنطوين على قلب واحد تحت ظلال أشجار الموز ، كل هذا يثير مشاعر الجميع من أثرياء وفقراء ، فلماذا يبحث الشعراء عن الإلهام بعيداً ، إن عبقرية الشاعر كامنة فى قلبه ، ويكفى أن تهز هذه القيثارة الإلهية عفواً ببعض النغم البسيط لتعزف وتبكي جيلاً كاملاً » . (١)

تلك هى قصة « بول وفرجينى » التى أبكت جيلاً بأسره وألهمت أكثر من كاتب وشاعر ، وكانت مشعلاً من المشاعل الرائدة للحركة الأدبية الجديدة التى بشر بها روسو ودعّمها سان بيير وتبناها شاتوبريان لتصبح من بعدهم رومانسية القرن التاسع عشر (٢) .

(١) الشاعر لامارتين .

(٢) قليل منا من لم يقرأ قصة « الفضيلة » لمصطفى لطفى المنفلوطى ولم يتأثر بأحداثها وأسلوبها ، ولكن لم يخطر ببال الكثيرين أن يقارنوها بالبص الأصيل الفرنسى « بول وفرجينى » ، لأن جزالة العبارة العربية فيها لا تشعر القارئ أبداً أنها منقولة عن نص أجنبى . ولما عكفت على دراسة هذه القصة ، اضطرت إلى مقابلة النصين العربى والفرنسى بعضهما ببعض ، فزاد إعجابى بكتابتنا العربى الذى لم يتقيد بالترجمة التقليدية بل استوعب القصة ثم صاغها بأسلوب عربى نقى ما كان يسلس لغيره للتعبير عن أدق المعانى التى أرادها المؤلف من تحليل نفسى ووصف للمشاهد الطبيعية وتعليق فلسفى على شئ =

الموضوعات كالحياة والموت والدين ووجود الله والطبيعة والمجتمع والفضيلة . . . الخ . حتى يكاد النصان يختلفان اختلافاً تاماً فى سياق الحديث ومضمون الجملة وتسلسل العبارة ، فالمنفلوطى فى وصف المشاهد الطبيعية لا يقتصر على ما أورده المؤلف بل يضيف كثيراً من خياله مستغلاً ثروة اللغة العربية ومقدرته الخاصة على استخدامها ، ولا يتقيد بالأصل مطلقاً لا سيما فى مجالات الوعظ ، فبينما يكتفى المؤلف بفقرة واحدة عن الموت أو الصداقة أو الفضيلة أو السعادة ، يملأ المنفلوطى فى هذا المعنى صفحات كاملة من أروع البيان رغم تكرار المعانى وكثرة الترادفات . ولا يتسع المقام هنا لتقديم الأمثلة على ذلك فهى أكثر من أن تحصى . وقد حاولت أن أستشهد فى تحليلي للقصة أو لفن الكاتب ببعض فقرات أستمدّها من الكتاب العربى ، ولكنى عزفت عن ذلك بعد ما تبين لى من تباعد بين النصين ، وترجمت بنفسى ما أردت من مقتطفات ، غير طامع بالطبع فى بلوغ مستوى عبارة المنفلوطى . وأسوق للقارئ هذه الفقرة فى وصف العاصفة ترجمتها حرفياً إلى العربية وأتبعها بالنص الذى يقابلها فى هذا الفصل من كتاب المنفلوطى :

- « عن النص الفرنسى » : كان كل شئ ينفى باقتراب العاصفة ، كانت السحب فى سمت السماء حمراء عند أطرافها ، قائمة مخيفة عند الوسط ، وكان الفضاء يمتلئ بأصوات الآلاف من طيور البحر ، أقبلت من كل حذب وصوب رغم الظلام ، تبحث عن ملجأ لها فى الجزيرة .

وقرب التاسعة صباحاً سمعنا من ناحية البحر أصواتاً مرعبة كأن سيولاً انحدرت من أعلى الجبال شتلتة بقصف الرعود ، وصاح الجميع : « هذه هى العاصفة ! » وفى تلك اللحظة هبت ريح عاتية على شكل دوامة بددت الضباب الذى كان يغطى جزيرة العنبر . . .

- (من كتاب المنفلوطى) : لبس الجو حلة غريبة لا عهد له بمثله من قبل ، وكأنما انبعث فى جميع أوصاله رعشة شديدة كتلك الرعشة التى تنبعث فى جسم الخموم وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر كأن مطارداً يطاردها ويشد على أثرها ، وتراءت قطع من السحب السوداء قائمة تلمع فى خلال نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص النار خلال الرماد وامتأد الجو بفحيح الأفاعى وطنين البعوض وزججرة الوحوش .

وفى نحو الساعة السابعة سمعنا قعقة عظيمة قد انبعثت من جميع جهات البحر فى آن واحد . فاهتزت الأرض والسماء ودار الفضاء وانقلب على كل شئ سافله ، وصاح الجميع « العاصفة » . هنا رأينا منظرًا هائلاً مخيفاً جمدت له دماؤنا فى عروقنا مشيت له قلوبنا فى صدورنا وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الأيام والليالي ولا نستطيع أن ننسأ حتى تبرد عظامنا فى ثراها : رأينا الضباب الذى كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة . . . الخ .